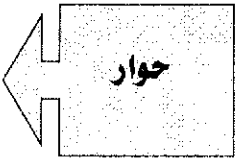

حوار مع الدكتور محمد سليم العوّا - مصر(*)

التقارب فريضة إسلامية

■ **كيف نشأت المذاهب الاسلامية؟**

❑ التعصب المذهبي بدأ في منتصف القرن السابع الهجري بعد ان مرت الامة الاسلامية بمرحلة الانتشار العظيم عسكرياً وسياسياً والتطور الهائل علمياً الذي أسس في مدارس فقهية، يمكن ان اقول انها كانت غير محصورة لأن الامام الشافعي لمّا دخل الى مصر كان في مصر ٢٣ مذهباً، ولم يكن هناك مذاهب اربعة، وتحدث عن الامام ليث بن سعد فقال: ليث افقه من مالك، ولكن اصحابه لم يقولوا به، ونحن نعرف من المذاهب التي لم يعد لها وجود مذهب الامام الاوزاعي، ومذهب ليث بن سعد، ومذهب عبدالرحمن بن ليلى، ومذاهب اخرى

---

* - استاد جامعي ، الامين العام لاتحاد العلماء المسلمين ورئيس جمعية الثقافة والحوار وعضو المجلس الاعلى للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامية.

كثيرة، ومذهب الظاهري، لولا كتابي إبن حزم المحلى والاحكام، ماكنا نعرف هذا المذهب اصلاً، كان ايضاً اندثر من ضمن المذاهب المندثرة، ولو قرأنا كتاب الاجماع لابن منذر، وهو من علماء القرن الرابع لوجدنا فيه مئات الاسماء، التي ينقل خلافها؛ مما يدل على انهم كانوا اصحاب آراء معتبرة في الاجتهاد؛ كآراء اصحاب المذاهب الكبرى (المالكي، الشافعي وابو حنيفة وغيرهم) فضلاً عن مذهب ائمة اهل البيت(ع) الذي اصلاً في رحاب الوجود النبوي المبارك، ثم مع الاضطهادات المتوالية التي حصلت وتوسعت في العراق وفي غيرها من بلدان اسلامية، ومن العجائب إنني وجدت بقايا لأهل البيت يحتفظون بنسبهم الى الآن، في دارفور لمّازرنا دارفور للتقريب بين المتنازعين قبل سنة تقريباً، فوجدت الذي ادخل الاسلام لهذه المنطقة من العالم احد المضطهدين من آل البيت(ع) في العصر العباسي، فقد ذهب هذا الى الاندلس اولاً، ثم من الاندلس الى افريقيا، ومن افريقيا دخل الى دارفور واستقر فيها ومنها انتشر الاسلام في غرب افريقيا كلها، فهذه الفئة من المسلمين من حملوا الدعوة الاسلامية لم يقتصر على المكان الذي عاشوا فيه؛ وهو المعروف للمؤرخين، وانما ذهبوا الى أماكن لم يكن يعرفها الناس، ووجدت مثلاً القراءات القرآنية التي عرفت عند ائمة المسلمين من آل البيت دخلت الى مناطق لم يكن يظن المؤرخون انها دخلت اليها، فقراءة الدوري مثلاً ادخلها واحد من ابناء عبد الله ابن عباس (رض) هو جدّ الرجل المعروف الان في السودان باسم مشير عبد الرحمن سوار الذهب، وهو الذي ادخل قراءة الدوري. فالعالم الاسلامي في القرون الستة والنصف الاول كان مفتوحاً وكان العلم ينتشر فيه بلا حرج

وكان الخلاف المذهبي يقع فيه بلا حرج، بل حتى مع بداية فترة الضعف مما يرويه الينا التاريخ ان الامام عزالدين عبدالسلام محدث الشام وفقيهها، الذي وقف في مواجهة الحكام، الذين يتعاملون مع التتار ثم بعد ذلك مع غيرهم، لما انتقل الى مصر توقف عن دروس الحديث.

لما انتقل الى مصر كان فيه الحافظ السلفي وقال انا سأدرس الفقه وأكف عن تدريس الحديث، فطلاب الحافظ السلفي لمّا حدثوه بذلك قال هو: ايضاً انا اكف عن تعليم الفقه واكتفي بتعليم الحديث، لأن مادام الحافظ سلطان العلماء قد وصل الى القاهرة فهو يدرس الفقه الشافعي يكفيني، وانا ادرس الحديث. كان هذا هو الروح السائد بين العلماء، روح المحبة والاخوة والاحترام، ونحن نعرف كلمات الامام ابو حنيفة في الامام جعفر الصادق(ع) ونعرف كلمات الامام مالك في فقه أهل البيت(ع) وتلقّيه منهم بكل رحابة صدر، فلم يكن هناك نوع من التعصب.

■ **كيف بدأ التعصب للمذهب؟**

□ بدأ التعصب بعد قرنين من شيوع مقولة اغلاق باب الاجتهاد، أغلق باب الاجتهاد في منتصف القرن الرابع الهجري، احتاج الامر الى قرنين من الزمان لكي يتعصب الناس نحو مذاهبهم، ولكي يلتف كل فريق نحو قول إمامه، ولكي يترسخ التقليد، ولا اعني التقليد بالمذهب المعروف عند اخواننا من اتباع مذهب اهل البيت(الشيعة) الامامية، لأن التقليد عند الشيعة الامامية ايضاً موجود عند السنة، وهو ان يُسأل الانسان العالِم المجتهد، هذا امر رباني ﴿فسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون﴾ انما اعني بالتقليد هنا العصبية المذهبية

التي تخطّيء الآخر، بعد التخطئة يصل الانسان عادةً الى مرحلة أكبر فيقول هذا ليس خطأ فقط هذا مخالفة للقرآن، بعد المخالفة للقرآن يصل الى التكفير والتفسيق والتبديع، وتبدأ المشكلة، هذا احتاج الى قرنين من الزمان حتى وصل الى التعصب، لم يعرف العالم الاسلامي التعصب قبل نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع، ودليل هذا ما وقع بين السنة انفسهم في المسائل التي اثارها ابن تيمية مثلاً وابن تيمية له مسائل في العلم، كما يقول الحافظ الذهبي، فطرد من ارضه بشأنها، ولَهُ آراء لا يوافق عليها جمهور المسلمين وله آراء أضطهد من أجلها اضطهاداً شديداً وسجن بسبب اقوال بسيطة في الفقه، وجرى هذا في كل المذاهب ليس فقط في مذاهب اهل السنة، ولا مذهب الشيعة الامامية، كل المذاهب. التعصب لَم يصب العلماء الكبار وانما اصاب العامة والصغار المقلدين، بأن الكبار ظلّوا على وعيهم؛ فاستمدادهم من نفس المنبع، هذا من القرآن وانا من القرآن وهذا من السنة وانا من السنة، فالاختلاف في تفسيق هذا الراوي وتجريح هذا الراوي يقع بين كل الناس، حتى اذا نظرت الان في شروط الحديث مثلاً، تجد تقسيم الحديث عند اهل السنة الى صحيح وحسن وضعيف وتجد تقسيم الحديث عند الامامية الى صحيح وحسن ومقبول او موثق وبعداً ضعيف. ماهو الفرق ؟ الفرق هو من اين اتى الراوي هل اتى من عدالة مطلقة ام من عدالة نسبية؟ وهذا الامر هو نفس المبدأ الذي يسير عليه علماء جرح وتعديل السنة، فالتعصب اصاب المجتمع، ولم يصب العلماء، العلماء الكبار بقوا على إنفتاحهم. والا مثلاً كتاب الخلاف للامام الطوسي في الفقه الامامي ماهو؟ هو نقل لمذاهب الامة الاسلامية كلها على قدر سواء هذا راجح وهذا مرجوح.

كلٌ يرجح مذهبه وهذا شيء طبيعي. الخطر الذي اصاب العامة بتعصب كل منهم لمذهبه.

■ **ما اثار التعصب المذهبي في المجتمعات الدينية؟**

❑ اهم اثر من اثار التعصب المذهبي في المجتمعات الاسلامية اننا اصبحنا بعد وقوع هذا الذي وصفته قبل قليل اصبحنا لا يحتمل بعضنا بعضا اصبح الشيعي لا يحتمل السني، واصبح السني لا يحتمل الشيعي، وشاع على ألسنة صغار القوم من اصحاب العمائم والعباءات واللحى، الذين يتزيون بزّي المشايخ، شاع شتم كل من الفريقين للاخر، اصبح السني يشتم الشيعي والشيعي يشتم السني، وجرى التطاول على الصحابة الكرام من اصحاب النبي(ص) ممن لم يؤيدوا سيدنا علي(ع) في المواقع المختلفة، لا يكفرونهم بهذا وانما يفسقونهم، يخطئونهم، اما التكفير فأمرٌ كبير جداً مع ذلك يقع من بعض الناس من صغار العلماء وصغار الشيوخ وطلاب العلم هذا القول. الامر بلغ الى اكثر من ذلك بلغ الى ان في بعض من المذاهب السنية قيل يجوز زواج المخالفة في المذهب قياساً مع الكتابية، لأنها يشك في ايمانها وهذا بين مذاهب اهل السنة انفسها، فما بالك بمذاهب الشيعة، وانا لا انسى عندما كنت في مكة المكرمة عام ١٩٨٠، وكنا في عمرة ١٩٨١ وكنا في اجتماع كبرى الدول الخليجية، فقيل لي ان رئيس الحرمين في ذلك الوقت افتى في حلقة الدرس بحرمة زواج المرأة الشيعية من الرجل السني، جاء رجل سني يسأله يقول: اذا نتزوج (نخولية) يسمونهم بسبب عملهم في النخله قال: لا تتزوجها، قال لماذا قال هذا حرام لأنهم لا يؤمنون بما نؤمن من الاسلام فجاءني رجل من اهل قطر من فضلاء العلماء فقال لي الرجل

الشيخ فلان افتى بكذا قلت غداً نزوره ونتحدث بهذه المسألة، فذهبنا غداً الى مجلسه في المجسد الحرام امام الكعبة المشرفة كان يجلس عند الركن اليماني فسلمنا عليه بعد صلاة المغرب فسألته انت افتيت في الامس بحرمة زواج المرأة الشيعية؟ قال نعم، قلت لماذا؟ قال لأنهم ليسوا مؤمنين بما نؤمن به من الاسلام قلت كيف؟ قال عندهم قرآن آخر عندهم عصمة ابناء رسول الله(ص) حتى الامام الثاني عشر، ويؤمنون بكذا وكذا من خرافات، تنسب الى المذهب الشيعي وليست فيه ونحن نعرف لانا درسنا المذهب الشيعي، فقلت له انا سأسلم لك بما تقول، هذا يعرفه العامة او يعرفه العلماء؟ قال لا يعرفه العلماء، قلت له: الشيعي الذي يصلي الآن (وكان واحد يلبس عمامة سوداء من السادة يصلي ركعتين بعد المغرب) قلت هذا شيعي يصلي الان لو نادينا عليه وسألناه يعرف هذه المسائل الذي تحدثت عنها؟ قال لا يعرف، طيب هو يصلي امام الكعبة التي نحن نصلي ويشهد (ان لا اله الا الله) (وان محمد رسول الله) يخرج من الملّة قال: لا.

كنت اتحدث عن القياس ذكرت احكامه وشروطه وقلت: اخواننا الامامية لا يقبلونه ويقولون انه دليل العقل. وذكرت انه دائماً تقولون ان اخواننا الامامية، ما معنى هذه الاخوة؟ ونحن مختلفون معهم بالاصول، فأسأل أي اصول نحن مختلفون فيها يقولون مختلفون في اصل الامامة، اقول نحن نقول هي من فروع الدين، وهم يقولون هي من الاصول، وهم يرونها أصلاً من الأصول وعندنا فرع من الفروع فتخطئة الأخ السنّي أو الاخت السنية، لأنه غير منتبه بأن الخلاف في الامامة هو خلاف فقهي. ودائماً اذكر لهم كلمة الامام حسن

البنا يقول لمّا جاء الاستاذ نواب صفوي (رح) الى جامعة القاهرة وخطب خطبة عظيمة جاء الطلاب الى الامام حسن البنا وقالوا له هذا الشخص الشيعي ادخلتموه الجامعة كيف؟ فقال لهم الإمام حسن البنا: ماهو الخلاف بينكم وبين الشيعة. قالوا خلاف كبير - خلاف الامامة و.. قال الان هل يوجد امام عند الشيعة الامامية؟ قالوا لا، الثاني عشر عندهم مختفي، قال ويوجد خليفة عند السنة؟ قالوا لا، قال: انا اقترح عليكم ان تقولوا لاخوانكم الشيعة ليكن الان خليفة على المسلمين كلهم سنة وشيعة مرّة شيعي ومرّة سنّي فإذا جاء الامام الثاني عشر ان شاء الله في الوقت المقدر له عند الله كلنا نتبعه لن يخالفه احد، فذهب كل الغضب الذي كان في نفوسهم قالوا هذا جيد ومعقول.

■ **التقريب بين المذاهب إحدى الطرق المؤدية الى وحدة الامة الاسلامية فما رأيكم في مفهوم التقريب وكيفية تطبيقه في المجتمع؟**

❑ انا ارى التقريب ليس بين المذاهب، ونحن نقرب بين ابناء المذاهب لا بين المذاهب، وانا لا اريد ولا اقبل ان اطلب تغيير قاعدة او مسألة جزئية في مذهب من المذاهب ، انا نشأت حنفياً لا اطلب من المالكي ان يغير مسألة من المسائل، ولا انه يطلب مني، وكذلك ما افعله مع الشيعة الامامية ومع غيرهم من المذاهب وانما اطلب ان يرى وجهة نظري، يراها بمعنى يقدرها. بمعنى ان يعرف لي فهماً مختلفاً عن فهمه، بمعنى انه يقدر ان نظري، في الدليل مختلف عن نظرته. امّا ان اقول أُقرّب بين المذاهب هذا من المحالات، لا يمكن ان تقرب بين المذهبين، المذاهب بناء متكامل يبدأ بمعنى شهادة ان لا اله الا الله وينتهي بأحكام غسل الميت ودفنه والصلاة عليه فكيف تغير هذا البناء، هذه امنية

ولذلك الشيخ الشعراني وهو من المقلدَّين في اهل السنة له كتاب (رحمة الامة باختلاف الائمة) ونحن نرى هذا الحديث «اختلاف امتي رحمة» بمعايير المحدثين لا يصح أعني حديث ضعيف ولكن الشيخ الشعراني سمى كتابه رحمة الامة، ماذا قال؟ قال: الأئمة الذين اسسوا المذاهب كان كل واحد منهم شرح الاسلام شرحاً مستقلاً وان هذا فهمه لدين الاسلام والناس يتبعونه على هذا الفهم وانتم ايها الناس جميع هذه الطرق توصلكم الى الجنة فمن مشى في طريق منها وصل ان شاء الله في النهاية الى الجنة، نحن نقول هذا ايضاً خارج المذاهب الاربعة، هذه طرق لفهم الاسلام لا احاول التقريب الا بين اهلها، وانا اعرف ان اخواني الشيعة يحبونني كما يحبون اخوانهم وانا احبهم كما احب اخواني واتقابل معهم وحتى من المدارس المختلفة داخل اخواننا الشيعة من الاصوليين، من الاخباريين، من الشيعة الذين يقولون بالاعلمية، والذين يقولون بالاختيار، من الذين يقولون بالمرجعية العربية للعرب والعجمية للعجم، كل الاختلافات هذه لا تحول بيني وبين هذه الصداقة والاخوة التي اساسها الاسلام ليس اساسها التعصب المذهبي فنحن ندعو الناس الى ان يتقاربوا مع المحافظة على مذاهبهم، انا لا اريد من احد ان يغير شيئاً.

كان رحمة الله عليه اخونا الحبيب الشيخ محمد مهدي شمس الدين في بيتي كثيراً ما قال: لا احب ان يتسنن شيعي ولا يتشيع سني، كل واحد في مذهبه، وكم صلى خلفه اخواني المسلمين السنة المصريين في بيتي وكم صلى هو خلفنا في بيته وفي بيتنا فنحن نعيش في هذه الروح وندعو الناس اليها انشاء الله.

■ **ما رأيكم لو قلنا التفاهم على المشتركات؟**

❑ الجهد الذي يقوم به الان مجمع التقريب مثلاً في جمع الاحاديث المشتركة، هذا جهد رائع؛ لانه يري العلماء كيف اننا متفقون، اخبرني صديقنا واخونا الحبيب العلامة آية الله التسخيري انه لما انشغلوا على موضوع الصوم والحج، وجد كثيراً من الاحاديث فلماذا نختلف؟ هذا جهدٌ للعلماء، هذا يؤدي الى نشأة جيل من العلماء ليس عنده تعصب، الان ليس مسألة دليل، الان ننظر في مصلحة الأمة الاسلامية، فانا ارى الان المشترك الفقهي والمشترك الروائي، وكثير من الاراء نحن الفقهاء متفقون عليها، بل المذاهب الاربعة متفقة على هذا المشترك فيجب تنميته وتعظيمه وتوسيع نطاقه باجتهاد جديد معهم، وضروري واول شيء يجب ان نعمله هو ما قام به المرحوم الشيخ محمود شلتوت(رح) عندما اصدر قراراً بتدريس المذهب الجعفري في الازهر، واصدروا في مصر كتاب (مختصر النافع في الفقه الامامي) ثم طبعوا كتاب (شرائع الاسلام) للمحقق الحلي، وانتشر في جيل كامل من العلماء هذا الجهد بعد الشيخ شلتوت وبعد قيام الثورة المصرية والخلافات مع شاه ايران، ثم جاءت بعد ذلك الاحداث في عهد السادات مع الامام الخميني(رح).

■ **كيف تقوّمون مسيرة مجمع التقريب في هذا المجال؟**

❑ مجمع التقريب ما يقوم به حتى يتجاوز امكانياته، وهو يقوم بعزيمة الرجال القائمين عليه؛ بأن المجمع عبارة عن مؤسسة محدودة العدد من الناس محدودة الموارد المالية، قائمة في دولة واحدة يعنى هي الجمهورية الاسلامية الايرانية وتتعدى حدود الجمهورية الاسلامية، بأن تعمل على ان يكون عملها

خارج نطاقها وهذا يقتضي تضافر مجامع عديدة في العالم، هذا المجمع يقوم بدور لا اقول رائداً، وانما هو دور المتابعة لما قام به المشايخ المرحومين الشيخ محمد القمي، والشيخ محمود شلتوت، وآية الله بروجردي، والشيخ محمد المدني و.. هؤلاء قاموا بالمرحلة الا ولى من حملة التقريب وفي المرحلة التالية قام مجمع التقريب بفعالياته الذي تمثّل المجمع، في إصدار مجلة رسالة التقريب لكن هذا الدور لا يكفي نحن نحتاج الى مئة مجمع نحتاج في كل قرية الى مجمع، ان كل عالم يكون عارفاً ان علاقته باخوانه الشيعة على هذا المحمل الدور الذي يقوم به المجمع في مسألة المشتركات في الروايات وفي الجهد الفقهي شيء رائع والدور الاكبر هو جمع العلماء الى بعضهم، والدور الشخصي الذي يقوم به اعضاء المجمع دور عظيم، لكن نحن نحتاج الى ادوار مماثلة في البلدان الاخرى، لا يكفي فقط ايران لتطلب التقارب، يعني لا يكفي التقارب فقط من قبل ايران، يعني لا يكفي التقارب فقط من قبل الشيعة الامامية يجب ان يكون من قبل كل المسلمين .